

**الإدارة الفرنسية ودورها في تكريس القبليّة
في تشاد ١٩٠٠-١٩٦٠م**

إعداد

د. أحمد محمد زين جمعة

**عضو هيئة التدريس بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
ومدير إدارة البحث والتعاون بجامعة أنجمينا**

د. محمد زين نور محمد

**عضو هيئة التدريس بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
ومسؤول قسم الماستر بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
بجامعة أنجمينا**

Email: Ahmatzen3@gmail.com

DOI: 10.21608/AAKJ.2025.414038.2176

تاريخ الاستلام: ١٤ / ٨ / ٢٠٢٥م

تاريخ القبول: ٢٨ / ٢٠ / ٢٠٢٥م

ملخص:

القارة الإفريقية هي من أكثر قارات العالم عرضة للاستغلال والنهب المادي الممنهج، وكذلك هي عرضة للغزو الحضاري والثقافي الذي ينطلق من مفاهيم تسعى إلى طمس هوية الشعوب الإفريقية بل وجعلها في وضعية قابلة لكل أنواع التخلف والانهازامية أمام ما هو غربي.

ومن خلال ما تم تناوله في هذه الدراسة التي تناولت أسلوب الإدارة الفرنسية الرامي إلى المحافظة على عدم الاستقرار في جمهورية، والذي سلكت فيه عدة أساليب ووسائل نذكر منها على سبيل المثال للحصص أسلوب سياسة مسخ الهوية الثقافية والدينية، ومن ضمنها موضوع هذه الدراسة الذي يعتبر من أكثر الأساليب فتكاً وتأثيراً على عدم الوحدة الوطنية والانتماء للوطن وهو ترسيخ القبلية والانتماء إليها على حساب الانتماءات الأخرى الجامعة كما أشارت إليه هذه الدراسة.

تمكنت الإدارة الفرنسية وبكل حنكة وفطنة من تنفيذ هذا الأسلوب بحذافيره، فشمّل كل قطاعات الدولة وكذلك المجتمع بكل مكوناته لم تتجو منه حتى المكون الديني، فغابت المرجعيات الدينية والتف الناس حول المرجعيات القبلية.

وبهذه الكيفية تلاشي الانتماء إلى الوطن وظهر أسلوب المحاصصة والموازنات القبلية وذلك لإيجاد نوع من التوازن والرضى للمكون القبلي الآخر، ولكن كل ذلك لم يشفع للدولة وبحول دونها وعدم التنازع على السلطة، فمازال إن البنية الاجتماعية والفكرية لمجتمع تشاد هي إسلامية في الممالك الإسلامية وما بعدها، وتركيبها قبلي، وبالرغم المحاولات من الإدارة الفرنسية على طمس الهوية الإسلامية، واستغلال التركيبة القبلية لجعل فئة تحمل الأفكار الغربية التابعة لها إلا أن النتائج لم تكن بالمستوى المطلوب ومازال تُسمع أصوات تنادي بتشاد حرة فرنسا برة.

فإن ما يعانيه الشعب التشادي من جهل وتخلف اقتصادي وتمزق قبلي واجتماعي وفقير مدقع هو نتاج ما خلفته الإدارة الفرنسية.

لقد استفادت الإدارة الفرنسية من التركيبة القبلية للمجتمع التشادي وذلك بتحويلها إلى أداة للتفرقة والعنصرية في داخل المجتمع.

إن الحدود السياسية التي فرضتها الدول الاستعمارية على إفريقيا والتي لم تراعي فيها التركيبة القبلية الإفريقية وبالتالي كانت هذه الحدود وبهذه الكيفية عامل من عوامل عدم الاستقرار في إفريقيا بشكل عام وجمهورية تشاد بشكل خاص.

لم تتمكن الإدارة الفرنسية من محو المراكز الأساسية للمجتمع التشادي بل ظلت قائمة فالدين والثقافة والعادات والتقاليد هي الرابط والجامع للمكونات القبلية للمجتمع التشادي.

الكلمات المفتاحية: الإدارة الفرنسية، القبلية، تشاد.

Abstract:

The African continent is one of the world's most exposed to exploitation and systematic material plunder. It is also exposed to civilizational and cultural invasions stemming from concepts that seek to erase the identity of African peoples and even render them susceptible to all kinds of backwardness and defeatism in the face of Western values.

This study, which addresses the French administrative method aimed at maintaining instability on the continent, has adopted several methods and means, including, for example, the political method of distorting cultural and religious identity. This study, which is considered one of the most lethal and influential methods on the lack of national unity and belonging to the homeland, is the consolidation of tribalism and tribal affiliation at the expense of other inclusive affiliations, as indicated in this study.

The French administration, with all its skill and insight, was able to implement this method to the letter. It encompassed all sectors of the state, as well as society with all its components. Even the religious component was not spared. Religious sources were absent, and people rallied around tribal ones.

In this way, belonging to the homeland disappeared, and the quota method and tribal balances emerged to create a kind of balance and satisfaction for the other tribal component. However, all this did nothing to intercede with the state and prevent it from challenging power. It remains true that the social and intellectual structure of Chadian society is Islamic, both within the Islamic kingdoms and beyond, and that its composition is tribal. Despite the French administration's attempts to erase Islamic identity and exploit tribal composition to subordinate a group to Western ideas, the results are not up to par, and voices are still being heard calling for Chad is free and France is outside.

The ignorance, economic backwardness, tribal and social divisions, and extreme poverty suffered by the Chadian people are the result of what the French administration left behind.

The French administration took advantage of the tribal structure of Chadian society, using it as a tool for discrimination and racism within society.

The political borders imposed by colonial countries on Africa did not take into account the African tribal structure, and thus these borders were a factor of instability in Africa in general and in the Republic of Chad in particular.

The French administration failed to erase the main foundations of Chadian society, but they remained unscathed. Religion, culture, customs, and traditions constitute the bond and unification of the tribal components of Chadian society.

Keywords: French administration, tribalism, Chad.

التمهيد:

من المعلوم أن القارة الإفريقية هي من أكثر قارات العالم عرضة للاستغلال والنهب المادي الممنهج، وكذلك هي عرضة للغزو الحضاري والثقافي الذي ينطلق من مفاهيم تسعى إلى طمس هوية الشعوب الإفريقية بل وجعلها في وضعية قابلة لكل أنواع التخلف والانهزامية أمام ما هو غربي.

ومن أجل الوصول إلى ذلك انتهجت الدول الاستعمارية تجاه القارة الإفريقية وشعوبها أساليب ومناهج عديدة وفي الحقيقة هي مساوئ في جملتها فمنها مسألة تقتيت القارة، وإن الاستعمار عندما جاء إفريقيا أزال الحدود والأسماء، وقام بعملية تجميع أطلق عليها مسميات جديدة مثل إفريقيا الغربية الفرنسية وإفريقيا الغربية البريطانية وهكذا، ولكنه عندما وجد لا مناص من الرحيل راح يفتت القارة ويقطع أوصالها، ويخلق منها دولا متعددة هزيلة ضعيفة لتظل كلها تتطلع إليه، بينما كان العالم يوقن أن التجمع أساس القوة، وأن الولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا لم تأخذ مكانتها إلا بسبب الوحدة، فإن سياسة الاستعمار بإفريقيا كانت تعمل للفرقة والتشتيت، ويلاحظ أن عمليات التجميع وعمليات التقتيت جميعا لم تكن برأي السكان ولا لصالحهم، وإنما كانت عمليات استعمارية لصالح الاستعمار، فاتحادات وسط وشرق إفريقيا لم تكن متجانسة، وتقتيت الامبراطوريات كانت له أهداف استعمارية عميقة.

ويبدو أن خبراء الاستعمار بذلوا أقصى الجهد لتحقيق أهدافهم في إضعاف القارة، وخلق المشكلات بها عقب خروجهم منها، واتخذوا تقتيت القارة أساسا لهذا الهدف، وبهذا أصبحت إفريقيا أكثر القارات تقسيما وتعددا سياسيا. (١)

وإن جمهورية تشاد تعتبر واحدة من دول إفريقيا التي شملها هذا الكم الكبير من السياسات والأساليب الاستعمارية المختلفة، وأن في الفترة التي تعتبر تشاد منطقة من مناطق إقليم إفريقيا الاستوائية الأربعة، ظلت تشاد تعيش في عزلة عن تلك المناطق، وتعاني من مشاكل خاصة بها، ذلك أن الاستعمار الفرنسي لم يتعمق حيث أصبحت

تابعة لإدارة عسكرية مثلها في ذلك مثل بقية المناطق الإفريقية التي خضعت لفرنسا، واعتمد هؤلاء العسكريون في إدارتها علي الزعماء التقليديين الذين تعاونوا منذ البداية مع الغزو، وليس هذا فحسب بل أخذوا ينشئون في البلاد نظام (الكتونات)، أي العمد ولم تهتم هذه الإدارة بالإصلاح الزراعي أو بنشر الثقافة والنظم الاجتماعية الحديثة، كما أنها لم تترك المجال لنمو التراث المتأصل في نفوس المواطنين، وإنما اكتفت بالتسلط والاستغلال.

أسباب اختيار الموضوع:

- الرغبة في المساهمة من أجل ايجاد وضع سياسي واجتماعي مستقر يسهم في احداث تنمية شاملة في جمهورية تشاد.
- إظهار مدى إسهام فرنسا في ضعف بنية المجتمع التشادي، والآثار الاجتماعية في تعميق هذه القبلية على مدى البعيد والقريب.

أهداف الدراسة:

- إظهار مدى إسهام فرنسا في ضعف بنية المجتمع التشادي، والآثار الاجتماعية في تعميق هذه القبلية على مدى البعيد والقريب.
- معرفة دور وأساليب الإدارة الفرنسية في ترسيخ الشقاق والصراع السياسي والقبلي بين التشاديين.
- إبراز المرتكزات الأساسية للشعب التشادي والتي تمثل عوامل تقارب ووحد.
- المساهمة في طرح بعض الحلول التي تسهم في ترسيخ الوحدة والتضامن بين مكونات الشعب التشادي.

مشكلة البحث:

تعالج وتبحث هذه الدراسة مشكلة أساسية تعاني منها معظم دول قارة إفريقيا بعد الاستقلال وهي مشكلة عدم الاستقرار السياسي، رغم أن هناك دراسات وبحوث

كثيرة تطرقت لدراسة هذه الإشكالية في إطارها العام إلا أننا سوف نبحث في هذه الدراسة عن أسباب عدم الاستقرار السياسي في جمهورية تشاد منذ الاستقلال حتى الوقت الحاضر وهذا بطبيعة الحال ملفت للنظر، وضع انفردت به جمهورية تشاد عن بقية دول إفريقيا عامة وإفريقيا المركزية بشكل خاص، لقد شهدت معظم هذه الدول نوعاً من عدم الاستقرار السياسي فيها لفترات معينة، ولكن الحال يختلف تماماً في جمهورية تشاد حيث لم تشهد أي استقرار سياسي منذ الاستقلال.

بالرغم من عدم وجود تعريف جامع مانع للاستقرار السياسي، إلا أن ثمة اتفاق عام بين الباحثين والدارسين لهذه الظاهرة، مفاده أن الاستقرار السياسي وفقاً لشروط وضوابط محدده يعد مطلباً جماعياً، يبتغيه الحكام والشعوب في كافة الدول، فأياً كانت طبيعة النظام السياسي السائد في هذه الدولة أو تلك، يبقى الاستقرار هو المبتغى بحيث يستطيع النظام الاستمرار، ويتسم مفهوم الاستقرار السياسي بالمرونة والنسبية فما يتسبب في استقرار جماعة معينة قد يتسبب في الوقت ذاته في عدم استقرار جماعة أخرى. ولعل هذا ما يستوجب ضرورة مراعاة السياق السياسي والاجتماعي والنسق القيمي لكل مجتمع.^(٢)

قد تكون هناك عوامل عدة تقف وراء عدم الاستقرار السياسي وهذه العوامل قد يكون منها المباشر أو غير المباشر.

ولكننا في هذه الدراسة نحاول أن نتتبع ونحلل في طريقة الإدارة الفرنسية العسكرية ودورها في تكريس النزعة القبلية في المجتمع التشادي. وما أثر ذلك على الاستقرار السياسي وتكوين الدولة الحديثة في جمهورية تشاد.

والتي سوف يتم الحديث عنها بصورة مفصلة حتى يتثنى لنا اظهار ومعرفة استخدام هذه المكونات من أجل خلق جو يسوده عدم الاستقرار السياسي الذي يتحول كل مرة إلى نزاع مسلح بطرق قد تكون واحدة.

الموقع الجغرافي لجمهورية تشاد:

تشاد دولة حبيسة تقع شمال إفريقيا بين دائرتي ٢٣،٨ شمالاً تقريباً وخطي طول ١٣،٥٢ شرقاً، وتحيط بها (ستة) دول هي ليبيا في الشمال والسودان في الشرق، وإفريقيا الوسطى في الجنوب، الكاميرون ونيجيريا في الجنوب الغربي، النيجر من الغرب.^(٣)

كما تعتبر تشاد بمساحاتها الشائعة من أكبر الدول المحبوسة في القارة الإفريقية وثالث أكبر دولة قارية في العالم بعد كازاخستان ومنغوليا، وتحتل المرتبة الثامنة عشرة بين دول العالم من حيث الترتيب المساحي.^(٤)

ومن جهة أخرى تمتاز تشاد بمساحات واسعة من الأرض السهلية المنبسطة، تبدأ بمحاذاة الغابة المدارية في جنوب البلاد حيث نجد غابات السافانا الغنية والنباتات دائمة الخضرة، والمجاري المائية الدائمة والموسمية والمستنقعات والبحيرات الطويلة، بينما توجد السهول العشبية في الوسط وتليها الصحراء الجافة.^(٥)

إنها أكثر دول وسط إفريقيا تطرفاً نحو الشمال حيث تمتد من ٨ - ٢٣ درجة عرضية شمالاً بمساحة تصل إلى ١,٢٨٤,٠٠٠ كيلو متر مربعاً، وقد كان موقعها المتطرف وظروفها الطبيعية سبباً في جعلها ملجأ للزنج هرباً من تجارة الرقيق في الجنوب، إلا أن اتساع الدولة أدى إلى مشكلات مزمنة سببها طول طرق النقل والمواصلات كما أنها تعاني من مشكلات أخرى أهمها ندرة المياه في إقاليم الشمالية - والفيضانات الموسمية في الجنوب ثم الصراعات العرقية بين سكانها الشماليين والجنوبيين.^(٦)

وتميل أرض تشاد بوجه عام نحو الجنوب الغربي، ويدل على ذلك اتجاه المياه من مختلف الجهات نحو بحيرة تشاد التي تقع في الجنوب الغربي، تلك البحيرة التي سميت المنطقة باسمها.

كانت هذه البحيرة ذات رقعة واسعة الانتشار، ويظهر انها كانت تشمل منخفض (بولي) الذي لا يزال يتصل بها بواسطة بحر الغزال، ولكن هجوم الكثبان الرملية عليها من الشمال الشرقي قد طمر أجزاء كبيرة منها.

ومناخ تشاد حار بوجه عام، ورياحه كلها شمالية شرقية جافة تحمل معها السحب حيناً والأتربة أحياناً أخرى.^(٧)

التركيبة القبلية لجمهورية تشاد:

كانت منطقة (بحيرة تشاد) أو السودان الأوسط (تشاد) لخلوها من العوائل الطبيعية مثل الصحاري والمرتفعات والأدغال، قد أصبحت نقطة التقاء القوافل التجارية والهجرات البشرية، فقد انحدر إليها من الشمال الشرقي النوبيون، ومن الشرق العرب والحبشة، كما وصل إليها عبر الصحراء البربر والعرب، لا سيما بعد الفتح الإسلامي لمصر وشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي ومن الجنوب جاء إليها البانتو والزنج، ومن الغرب الهوسا والفلاتة، الأمر الذي جعلها تشاد مركز تجاري وحياة مزدهرة^(٨)، ومنذ العصور الوسطى تتميز تشاد بموقعها الاستراتيجي الحساس الذي يربط بين شمال وجنوب القارة الإفريقية من جهة وغربها وشرقها من جهة.

وقد استقرت العديد من المجموعات السكانيات سواء القبائل الحامية أو السامية، ومن هذه المجموعات: مجموعة القبائل العربية وقبائل القرعان والزغاوة والكانمبو والبلالا والمبابا والحجار والساوا وغيرها من القبائل.^(٩)

فقد برزت على الساحة التشادية ثلاث ممالك إسلامية عريقة وهي مملكة (كانم - برنو) في شمال وجنوب بحيرة تشاد، وتعد أقدم تلك الممالك، وقيامها في القرن التاسع الميلادي ومملكة (باقرمي) توجد شرق تلك المملكة، وقيامها يعود للقرن السادس عشر الميلادي ومملكة (وداي)^(١٠)، وكانت بقية الممالك عبارة عن ولايات لمملكة كانم إلى وقت انفصالها.

تشاد عبارة عن بوتقة انصهرت فيها عناصر متباينة بحكم موقعها الإقليمي، فقد جذبت إليها العديد من القبائل والمجموعات المختلفة من السكان - كما سبق - سواء كانوا من الإفريقيين أو العرب من الشرق أو من الشمال أو من المناطق المتصلة التي تحيط بها، وقد اختلطت جميعهم عن طريق المعاشة والمصاهرة.^(١١)

وكان نتاج ذلك مجموعات بشرية جديدة، تدافع عن كيائها ولغتها، وبطبيعة الحال أكثر بداءة وأكثر ميلا للقوة من أجل المحافظة على كيائها.

وسكان تشاد خليط من شعوب وقبائل متعددة، بالرغم من أنهم ينتمون إلى مجموعات عرقية متنوعة إلا أنهم يتكلمون باللغة العربية مع وجود لهجاتهم المحلية.

وهذه القبائل ومنذ اختلاطها بالشعوب الأخرى قد أضحت عاملاً هاماً في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي وبالرغم من تعدد المجموعات السكانية في تشاد إلا أنها عامل وحدة أكثر من كونها عامل فرقة إلا بعد سياسة الإدارة الفرنسية في تشاد والذي أرادت من خلاله تمزيق المجتمع التشادي.^(١٢)

نظام الإدارة في الممالك الإسلامية قبل الاستعمار:

فمملكة كانم التي تعد أم الممالك الأخرى، قد أخذت طريقها نحو النمو والتطور من المجتمع القبلي المفكك إلى مجتمع شبه قومي موحد في دولة مركزية تشبه الدول الإفريقية الحديثة، حيث امتدت وتكونت منها أربع ولايات كبيرة هي:

١- **الولاية الشمالية:** هي ولاية كانم وعاصمتها مدينة (انجيمي) مقر السلطان وحاشيته، ومنها تصدر التعيينات والتعليمات السلطانية إلى حكام الولايات التابعة للمملكة وهي تمتد إلى كوار، وكانو غرباً وبلاد النوبة شرقاً، وفزان وكفرة شمالاً، وبحيرة تشاد جنوباً.

٢- **الولاية الجنوبية:** وهي ولاية باقرمي، تقع جنوب بحيرة تشاد على امتداد نهري شاري ولوجون، وتمتد إلى مورا ويولا غرباً ودار سارا جنوباً وبلاد الحجار شرقاً وعاصمتها مدينة (مأسينا).

٣- **الولاية الشرقية:** وهي ولاية وداي: عاصمتها مدينة (وارا)، وتمتد حدودها إلى بحر الغزال غربًا، ودار فور شرقًا ومرتفعات انيدي شمالًا، ودار كوتي جنوبًا.

٤- **الولاية الغربية:** وهي ولاية برنو، وهي تقع غرب بحيرة تشاد وعاصمتها مدينة (كيكوا) وتمتد حدودها إلى كانو غربًا، وزندر شمالًا ويولا جنوبًا، ونهر شاري وبحيرة تشاد شرقًا.^(١٣)

والواقع أن رئيس القبيلة هو الذي كان يقوم بحل مشاكل قبيلته بالوسائل التقليدية، ثم جاء الإسلام وتطورت الإدارة وعاش الناس في إدارة واحدة وقانون واحد ودولة واحدة.

فهذا التقسيم الإداري - السابق للولايات - المنظم جعل على كل قسم منها والي يتولى شئونها حتى يسهل حكمها والاشراف عليها، وبذلك أصبحت لهذه الممالك نظم إدارية راقية يكفل لها حسن المراقبة عليها، كما يسهل لها تجميع القبائل المتناحرة التي تمت السيطرة عليها تحت راية الإسلام، وقد علق أحد المؤرخين الغربيين على نجاح حكومة كانم في تنظيم وإدارة دولتها مترامية الأطراف بقوله: (أن الإسلام هو الذي مكن لهذه الإمبراطورية الشاسعة من تنظيم الرعية وضبط الأمن فيها).^(١٤)

إذن كانت الإدارة راقية قبل الاستعمار، لكل ولاية حاكم يحكمها باسم سلطان البلاد ويتلقى منه الأوامر من وقت لآخر، وأنها تضم جميع الجوانب الإدارية والقضائية وقضاة يصدرن الأحكام طبقاً للشرعية الإسلامية والأعراف المحلية.

فقد كان نظام الحكم أو الإدارة في الممالك الإسلامية في تشاد، يقوم المجلس بإدارة شؤون الممالك في حالتي السلم والحرب، والاشراف على مراسيم تولي السلاطين الجدد ويشارك بعض أعضائه في الحرب مثل العقداء الذين ضمن واجباتهم قيادة الجيوش وتزويد السلاطين بالمحاربين^(١٥)، بمعنى آخر كانت إدارة قوية ومتكاملة وراقية قبل فرنسا.

سياسة الإدارة الفرنسية تجاه التركيبة القبلية في تشاد:

ظل الأمر على - ما سبق - من تنظيم إداري وثقافي راقٍ، وصارت البنية الفكرية والسكانية لتشاد هي نتاج اندماج الثقافة الإسلامية بالثقافة التشادية، ظل هذا الوضع قائماً دون أي تحدٍ حتى وصول الفرنسيين إلى تشاد.

لقد حاول الفرنسيون في الفترة من (١٩٠٠ - ١٩٦٠م) قلب هذه المعادلة ومسح شخصية المجتمع التشادي حتى يصبح مجتمعاً تابعاً للغرب وقائماً على قيم ومبادئ برجوازية رأسمالية. ولهذا قامت فرنسا ببناء طبقة من المجتمع التشادي تحمل هذه الآراء لتتسلم السلطة من فرنسا بعد الاستقلال.^(١٦)

ولذلك كان لابد من الصراع بين هذين التيارين:

- التيار الشعبي التشادي المسلم وهو يمثل ٨٠% من سكان البلاد على الأقل.
- وبين الطبقة الرأسمالية البرجوازية التابعة للعالم الغربي في كل سياساتها الداخلية والخارجية.

هذه الطبقة (البرجوازية) كانت صغيرة جداً ولكنها كانت قوية بفعل الاستعمار الفرنسي.^(١٧)

لقد أخذ هذا الصراع المشار إليه شكل الصراع بين الأحزاب السياسية ثم بين الحكومة والثورة ثم بين الكانتونات والشعب.

إن نظم الإدارة الفرنسية وإن عمدت إلى القضاء على النظم التقليدية القبلية في بعض الأحيان لا سيما في إطار العواصم والمدن التي خضعت للتواجد الاستعماري، فإنها عمدت في غير ذلك تعميق الهوية القبلية كلما كان ذلك لصالح المستعمر، وأدى ذلك الدعم للهوية القبلية إلى صعوبة دعم الهوية القومية الكلية بعد الاستقلال.^(١٨)

لقد شهدت تشاد في الفترة من ١٩١٨ - ١٩٦٠م حكماً فرنسياً مطلقاً، إذ اعتبر السكان رعايا فرنسيين وألغيت الأنظمة التقليدية الموروثة.^(١٩)

وقد اتسمت الإدارة الفرنسية في تشاد بروح العنف والاستبداد، وتبدو في بعض الحالات، أنها تنطوي على عدم الاهتمام بمستقبل السكان، وقد عمق الاستعمار الفرنسي النظام القبلي لتبسيط الإدارة الاستعمارية في البلاد، الأمر الذي أدى إلى تجميد التطور السياسي والاجتماعي في أيدي رؤساء القبائل، الذين لم يتيحوا الفرصة أمام السكان للالتحاق بالمدارس رغم قلتها والمشاركة الفعالة في إدارة البلاد. (٢٠)

ومازال ثمن هذه السياسات يدفعه الشعب التشادي بعد ٦٥ سنة من الاستقلال المزعوم.

وحرى بنا في هذا الصدد أن نشير إلى أن النظام السياسي الذي وُجد مع انتشار الإسلام والذي قامت عليه هذه الممالك قد أدى إلى وضع حد كبير للنظام القبلي والولاء للسلطات القبلية التي كان لها نفوذ كبير قبل الإسلام (٢١)، وقد أصبح الانضواء تحت راية الإسلام عملاً ضرورياً من الناحيتين القومية والحضارية.

فالإسلام قد أضعف من الولاءات القبلية لصالح ولاءٍ أوسع هو الولاء للدين الإسلامي والأخوة الجامعة فيه لكل المسلمين أيّاً كانت قبائلهم أو أوطانهم أو ألوانهم، الأمر الذي كان لا بد منه وإن يكون له أثره على الولاء للنظام السياسي، فلم يعد ولاء لزعيم القبيلة قدر ما هو ولاء للحاكم المسلم.

فالسُلطان ليس مجرد حاكم يفرض إرادته على شعبه أو أبناء قبيلته وإنما ينظر إليه محور علاقاتهم ورمز وحدتهم وتضامنهم، إلا أنها ألغيت فيما بعد هذا النظام.

وأدخلت في البلاد نظام (٢٢) (الكونتات) لدعم الإدارة الفرنسية العسكرية وتكريس النظام القبلي بغية تسهيل السيطرة عليها. ونتيجة لذلك أصبح التطور القبلي لا يعبر عن الواقع الاجتماعي في المدينة، وإن كان الانتماء القبلي يظل برأسه فيها.

وفي بداية عهد الاستعمار تسجل على الأوراق الثبوتية بأن الشخص من قبيلة كذا، دون ربطه بالوحدة السياسية المتمثلة في كلمة تشاد؛ لأن غرض المستعمر كان

استغلال الثروات وليس بناء الدولة أو الأمة التشادية، وليست هناك حاجة لبذل جهد لجعل ظروف مواتية لتنمية الإحساس بالوطن والولاء له، لان ذلك سيتعارض مع المصالح الفرنسية في النهاية؛ ولذلك أصبح من الصعب إذابة المجموعات القبلية المختلفة في المجتمع التشادي.

وأياً ما كان الأمر، فان الإدارة الفرنسية، بمختلف آلياتها وأدواتها تركت آثاراً بعيدة المدى على كافة الأصعدة في المجتمعات الإسلامية التي خضعت لهيمنة الإدارة الاستعمارية.

ولم تكن المجتمعات الإفريقية في نطاق دول الساحل مفتقرة إلى النظم السياسية والحضارية؛ بل الإدارية إبان الحقبة السابقة والمتزامنة مع الهجمة الاستعمارية على المنطقة، وهو ما تكشف عنه الممالك الإسلامية بالمنطقة.

فقد خططت الإدارة الفرنسية إلى عاملين مؤثرين في المجتمع التشادي: (٢٣)

أولها: هو إضعاف الشعب وتقسيمه إلى مناطق وأقسام وغرس بذور الخلاف والشقاق بينه (فرق تسد).

ثانيها: هو إذابة شخصية الشعب وطمس هويتها ودثر تراثها وإرخاء ستار النسيان على ما قد يكون لها من أمجاد. (٢٤)

وقد يقول قائل: أن الفرنسيين عند احتلالهم لتشاد لم يجدوا دولة كانت قائمة موحدة، فإنهم عمقوا الفرقة والشتات وذرع القبلية والعنصرية بغية تبسيط السيطرة عليهم، ولكنهم وجدوا ممالك إسلامية لها حضارة عريقة وتراث ثقافي راقى، وما تركت فرنسا للشعب التشادي إلا الجهل والقبلية وحب السلطة وهذا لا يعالج إلا بالتعليم والتحضر وبالوعي القومي وإلا ستظل القبلية هي القوة الرئيسية التي تتحكم في العلاقات الاجتماعية كما نراه الآن في تكوين الأحزاب السياسية.

وظنّ بعض الدارسين إلى أن الاستعمار بصفة عامة، كانت له آثار إيجابية على عدة أصعدة منها: القضاء على ظاهرة الصراعات القبلية والمنازعات العرقية التي كانت تسود بلدان القارة الإفريقية إضافة إلى إدخال المؤسسات الحديثة وعلى رأسها مؤسسة القضاء، حيث عمدت الحكومات والنظم الاستعمارية إلى تقنين الأعراف التقليدية، إضافة إلى إدخال القوانين والمؤسسات القضائية الحديثة، فضلاً عن المؤسسات والتقسيمات الإدارية.

وذهب البعض الآخر: إن عملية الاستعمار جاءت على حساب القوى والمؤسسات التقليدية القائمة بالمجتمعات الإفريقية، حيث أن كثيراً من المجتمعات الإفريقية كانت قد بلغت طوراً حضارياً لا يقل بحال عن المجتمعات الأوروبية في كثير من الجوانب. (٢٥)

علمًا بأن الاستعمار عند ما جاء وجد ممالك إسلامية لها إداراتها وقوانينها ومكاتباتها ورسائلها واتفاقياتها الدولية. فالدول الإفريقية بشكلها الحالي وأسمائها وحدودها هي نتاج الدور الاستعماري وتقسيمه الإداري، لاسيما في نطاق المستعمرات الفرنسية، وهي الحدود والخطوط التي لم تراعى الحقائق الاجتماعية الإثنية والاقتصادية في المنطقة، بل حتى في الإقليم الواحد.

وقد جاء رسم هذه الحدود السياسية لتشاد نتيجة لاتفاقيات بين الدول الأجنبية.

وبنيت سياسة رسم الحدود في الدول الإفريقية في المقام الأول على مصالح الإدارة الاستعمارية وبالتالي لم تراعى التركيبة القبلية في هذه الدول وتعتبر جمهورية تشاد من أكثر الدول الإفريقية التي عانت من هذه السياسة ومازالت تعاني منها.

انقسمت قبائلها على الشريط الحدودي بينها وبين جاراتها الست، فنجد أن القبيلة الواحدة نصفها في تشاد والنصف الآخر في إحدى جاراتها.

ولقد تم تقسيم الأراضي المحتلة إلى مقاطعات على حسب النمط الذي ينظم أراضي ما وراء البحار، ولم تكتمل هذه البنية إلا في عام ١٩٢٠م، التاريخ الذي تم فيه توطيد الإدارة الفعلية في تشاد.

وعلى المستوى العسكري لم تسلم المؤسسة العسكرية من سياسة ترسيخ الانتماء القبلي والجهوي بل كان وسيلة من وسائل الوصول إلى السلطة والمحافظة عليها لأبعد وقت ممكن.

ولا جدال في أن أهم الأسس في جهاز الدولة هو تنظيم القوات المسلحة الموحدة من أجل الدفاع عن الوطن، وقوات الشرطة الوطنية من أجل الحفاظ على أمن الوطن وهذا ما تجاهله الرئيس تمبلباي، وقد تدرك قوى الاستعمار منذ البداية أهمية ذلك، فركزت ثقلها على تحقيق الصلات المباشرة بهذه القوى التي تتفرد بالقوة في إطار ضعف عناصر الوحدة الوطنية، وفي ظل ظروف التخلف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وقد وثق الاستعمار الفرنسي بقيادة القوات المسلحة والشرطة والمعونة الحربية والبعثات والخبراء العسكريين، وهياً للعناصر التي وثق فيها فرص السيطرة على المواقع القيادية، طمعاً في أن يخدم هؤلاء أغراضه في الوقت المناسب بعد انسحابه من تشاد.^(٢٦)

ففي عام ١٩٦٠م استقطبت فرنسا من بين التشاديين في قواتها لتحويلهم إلى تشاد وعددهم ٧٥٠ عنصرًا، أغلبهم من سكان جنوب البلاد، ومعظم ضباط هذه الصفوة من الجنوبيين الذين قبلوا لغة وثقافة ونمط حياة الفرنسيين عكس الشماليين الذين رفضوا الانصياع والخضوع للمستعمر وثقافته وإدارته العسكرية.^(٢٧)

ولذا فإن السكان المنحدرين من شمال البلاد لم يعتبروا أنفسهم جزءاً من هذا الجيش الذي أصبح جيشاً قبلياً.

فما هو إلا آلة في يد قبائل السارا على رأسها فرانسوا تمبلباي، ومن هذا المنطلق أصيب الجيش التشادي بهذا المرض القبلي العضال.

كما استمر الضباط الفرنسيون في مراكز القواعد الفرنسية حتى بعد الاستقلال كما هو الحال في تشاد وإفريقيا عامة، لأن القوات المسلحة قد ظلت رهينة للسياسات الفرنسية منذ ميلاد جمهورية تشاد، وتحويلها بعد ذلك إلى ميليشيات تتبع لقادة عسكريين وسياسيين يتنازعون في الحكم من خلال الحروب المتكررة التي عانت منها تشاد ر دحًا من الزمن، وظلت سمة ملازمة لها حتى اليوم. (٢٨)

وعلى الرغم من كل الجهود إلا أن الجيش التشادي قد أصبح مجهول الهوية لا هو فرنسي ولا هو وطني خالص، وصارت كل الوحدات العسكرية ممزقة، حتى العساكر والقادة انقسموا إلى قبليات، وحتى الآن لم نر جيشًا تشاديًا منظمًا ونفس الشيء ينطبق على الشرطة. (٢٩)

ومن أخطر أدوار الإدارة الاستعمارية في تمزيق المجتمع فرض لغته كأداة تواصل بين القبائل والجماعات المتعددة على حساب اللغة العربية التي كانت سائدة في البلاد، حيث أن فرض لغة المستعمر عبر آليات التعليم والإدارة.

ومن أدوار الإدارة التي قامت بها فرنسا في شق صف التشادي أن قسمت المجتمع بين شمال وجنوب وبين مسلم ومسيح؛ الأمر الذي عمق هوة الخلاف والفرقة بين الجانبين، وهو ما أدى إلى اختلافات وتباينات عديدة داخل المجتمع، وهو أيضًا ما أدى إلى تنوع الولاءات ولانتماءات على نحو عقد من مهمة القوى الوطنية في تجميع أبناء المجتمع للقيام بعمل موحد في مواجهة التحديات من أجل بناء الدولة واستقرارها.

ولذلك يعتقد أن الإدارة الاستعمارية تمثل بكل المعايير نقطة قطع وانقطاع للتطور التاريخي لتشاد وعلى نحو شوّه واقع تشاد وعقد من التحديات والمصائب التي كانت ولا تزال تواجه دولة تشاد في مرحلة ما بعد الاستعمار.

الخلاصة

إنه ومن خلال ما تم تناوله في هذه الدراسة التي تناولت أسلوب الإدارة الفرنسية الرامي إلى المحافظة على عدم الاستقرار في جمهورية تشاد، والذي سلكت فيه عدة أساليب ووسائل نذكر منها على سبيل المثال للحصر أسلوب سياسة مسخ الهوية الثقافية والدينية، ومن ضمنها موضوع هذه الدراسة الذي يعتبر من أكثر الأساليب فتكاً وتأثيراً على عدم الوحدة الوطنية والانتماء على الوطن وهو ترسيخ القبلية والانتماء على القبلية على حساب الانتماءات الأخرى الجامعة كما أشارت إليه هذه الدراسة.

ولذا تمكنت الإدارة الفرنسية وبكل حكمة وفطنة من تنفيذ هذا الأسلوب بحذافيره، فشمّل كل قطاعات الدولة وكذلك المجتمع بكل مكوناته لم تتجو منه حتى المكون الديني، فغابت المرجعيات الدينية والتف الناس حول المرجعيات القبلية.

وبهذه الكيفية تلاشي الانتماء إلى الوطن وظهر أسلوب المحاصصة والموازنات القبلية وذلك لإيجاد نوع من التوازن والرضي للمكون القبلي الآخر، ولكن كل ذلك لم يشفع للدولة ويحول دونها وعدم التنازع على السلطة، فمازال عدم الاستقرار هو سيد الموقف.

النتائج:

لقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية: -

- إن البنية الاجتماعية والفكرية لمجتمع تشاد هي إسلامية في الممالك الإسلامية وما بعدها، وتركيبها قبلي، وبالرغم المحاولات من الإدارة الفرنسية على طمس الهوية الإسلامية، واستغلال التركيبة القبلية لجعل فئة تحمل الأفكار الغربية التابعة لها إلا أن النتائج لم تكن المستوى المطلوب ومازال تُسمع أصوات تنادي بتشاد حرة فرنسا برّة.

- فإن ما يعانيه الشعب التشادي من جهل وتخلف اقتصادي وتمزق قبلي واجتماعي وفقر مدقع هو نتاج ما خلفته الإدارة الفرنسية.

- لقد استفادت الإدارة الفرنسية من التركيبة القبلية للمجتمع التشادي وذلك بتحويلها إلى أداة للتفرقة والعنصرية في داخل المجتمع.
- إن الحدود السياسية التي فرضتها الدول الاستعمارية على إفريقيا والتي لم تراعي فيها التركيبة القبلية الإفريقية وبالتالي كانت هذه الحدود وبهذه الكيفية عامل من عوامل عدم الاستقرار في إفريقيا بشكل عام وجمهورية تشاد بشكل خاص.
- لم تتمكن الإدارة الفرنسية من محو المرتكزات الأساسية للمجتمع التشادي بل ظلت قائمة فالدين والثقافة والعادات والتقاليد هي الرابط والجامع للمكونات القبلية للمجتمع التشادي.

التوصيات

- التركيز على النشاط الاجتماعي والثقافي في داخل المجتمع من خلال مؤسسات المجتمع المدني.
- إحياء دور المرجعيات الدينية والقيادات التقليدية، من أجل خلق جو يسوده التعايش السلمي بين مكونات المجتمع.
- العمل على إحداث تنمية شاملة - بدءًا بالبنية التحتية (طرق ...) لربط كل أجزاء البلاد ببعضها البعض وكذلك مع الدول المجاورة.

الهوامش

- ١ - د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص: ٤٨٧.
- ٢ - د. شيماء محي الدين محمود محمد، تداول السلطة والاستقرار في إفريقيا، الناشر المكتب العربي للمعارف، ٢٠١٥م، ص: ٤٨.
- ٣ - د. رأفت غنيمي الشيش، دراسات إفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الحكمة للنشر والتوزيع، ٢٠١١ م، ص: ١٣٨.
- ٤ - عبد الله بخيت صالح، الموقع الجغرافي الداخلي لتشاد وأثره في التطوير الاقتصادي والسياسي (دراسة تحليلية تطبيقية في الجغرافية السياسية) - رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا العام الجامعي: ٢٠٠٢ م، السودان، ص: ١٥.
- ٥ - د. عبد الرحمن عمر الماحي، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٣ - ١٩٦٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص: ١٠.
- ٦ - د. فتحي محمد أبوعيانة، جغرافية إفريقيا، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٢ م، ص: ٢٣٩ - ٢٤٠.
- ٧ - د. عبد الرحمن عمر الماحي، مرجع سابق، ص: ١٠ - ١٣.
- ٨ - الماحي، د/ عبد الرحمن عمر، المجتمع التشادي في عهد الاحتلال الفرنسي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص: ١٩ - ٢٠.
- ٩ - المرجع السابق، ص: ٢٣ - ٢٢٤.
- ١٠ - مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول عام ١٩٩٠م، ص: ١١٩، وانظر، الحركة السنوسية ودورها الإصلاحي في إفريقيا جنوب الصحراء ٢٠٢٠م، ص: ٢٦.
- ١١ - الغنمي، د/ عبد الفتاح مقلد، حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا، دار النسر للجامعات، مصر ط ١٩٨٥م، وانظر، التعليم العربي وتحديات العصر.
- ١٢ - محمد، د/ محمد زين نور، التعليم العربي وتحديات العصر في تشاد، مكتبة أبو بكر الصديق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢٠١٨ م، ص: ٢٧، وانظر د/ عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في إفريقيا، القاهرة، ط ١٩٧٠م، ص: ٧٢.

- ١٣- أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص: ٩٣٢، انظر، الماحي، المجتمع التشادي في عهد الاحتلال الفرنسي، ص: ٢٦ - ٢٨.
- ١٤- الدكو، د/ فضل كلود، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، ص: ٧٦.
- ١٥ - الحنديري، د/ سعيد عبد الرحمن، تطور الحياة السياسية في تشاد، ط ١٩٩٨م، ص: ٤٠.
- ١٦ - الحنديري، سعيد عبد الرحمن، العلاقات الليبية التشادية، منشورات مركز دراسات الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ط ١٩٨٢م، ص: ٩٧.
- ١٧ - المرجع السابق نفس الصفحة.
- ١٨ - د/ محمد عاشور، الإسلام والاستعمار والهوية في دول ساحل الصحراء، مؤتمر الدول، الإسلام في إفريقيا، الفترة من ٢٦ - ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٦م، الكتاب الرابع، ص: ٣٧٧.
- ١٩ - الماحي، عبد الرحمن عمر، المجتمع التشادي في عهد الاحتلال الفرنسي، ص: ٤٧.
- ٢٠ - المرجع السابق، ص: ٩١.
- ٢١ - د/محمد عاشور، الإسلام والاستعمار والهوية في دول ساحل الصحراء، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٢٤.
- ٢٢ - الماحي، د/عبد الرحمن عمر، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، ص: ٧١.
- ٢٣ - الماحي، د/عبد الرحمن عمر، المجتمع التشادي في عهد الاحتلال الفرنسي، ص: ٩٢. يتعرف
- ٢٤ - الماحي، د/عبد الرحمن عمر، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، ص: ٢٥١.
- ٢٥ - الإسلام والاستعمار والهوية في دول ساحل الصحراء، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٧٤.
- ٢٦ - أحمد محمد زين جمعة، الاتفاقات العسكرية الفرنسية التشادية وأثرها على الاستقرار السياسي في تشاد ١٩٦٠ - ١٩٩٠م، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة السودان المفتوحة، ٢٠٢١ م، ص: ١٠٨ - ١٠٩.
- ٢٧ - المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية في إفريقيا، ص: ٣٢٦.
- ٢٨ - نفس المرجع، ص: ١٠٩.
- ٢٩ - أبو فاتح عبد المنعم، المؤتمر الدولي الثاني للغة والثقافة في إفريقيا، فبراير ٢٠٠٨م، الجزائر، ص: ٣٣٥.

قائمة المصادر والمراجع

- ١- الدكتور/ أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي ج٦، مكتبة النهضة المصرية.
- ٢- الماحي، د/ عبد الرحمن عمر، المجتمع التشادي في عهد الاحتلال الفرنسي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ٣- مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، عام ١٩٩٠م.
- ٤- محمد، د/ محمد زين نور، الحركة السنوسية ودورها الإصلاحي في إفريقيا جنوب الصحراء، مطبعة شمس برنت، سلا، المغرب، ط ٢٠٢٠م.
- ٥- الغنمي، د/ عبد الفتاح مقلد، حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا، دار النسر للجامعات، مصر، ط ١٩٨٥م.
- ٦- محمد، د/ محمد زين نور، التعليم العربي وتحديات العصر في تشاد، مكتبة أبوبكر الصديق، للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢٠١٨م.
- ٧- د/ زكي، الإسلام والمسلمون في إفريقيا، القاهرة، ط ١٩٧٠م.
- ٨- الدكو، د/ فضل كلود، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط ١٩٩٨م.
- ٩- الحموي، أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٤، ط ١٩٩٠م.
- ١٠- الجنديري، سعيد عبد الرحمن، تطور الحياة السياسية في تشاد، ط ١٩٩٨م.
- ١١- الجنديري، سعيد عبد الرحمن، العلاقات التشابه الليبية، منشورات مركز دراسات الليبي ضد الغزو الايطالي، ط ١٩٨٢م.
- ١٢- د/ محمد عاشور، الإسلام والاستعمار والهوية دول الساحل والصحراء، المؤتمر الدولي، الإسلام في إفريقيا - الفترة من ٢٦ - ٢٧ نوفمبر، الخرطوم، الكتاب الرابع.
- ١٣- أبو فاتح عبد المنعم، المؤتمر الدولي الثاني للغة والثقافة في إفريقيا، فبراير ٢٠٠٨م، الجزائر.
- ١٤- أحمد محمد زين جمعة، الاتفاقات العسكرية الفرنسية التشادية وأثرها على الاستقرار السياسي في تشاد ١٩٦٠ - ١٩٩٠م، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة السودان المفتوحة.
- ١٥- عبد الله بخيت صالح، الموقع الجغرافي الداخلي لتشاد وأثره في التطوير الاقتصادي والسياسي (دراسة تحليلية تطبيقية في الجغرافية السياسية)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا العام الجامعي: ٢٠٠٢م، السودان.
- ١٦- د/ شيماء محي الدين محمود محمد، تداول السلطة والاستقرار في إفريقيا، الناشر المكتب العربي للمعارف ٢٠١٥م.